

صديق الكلاب

أقصوصة عراقية
بقلم أحمد حسن الزيات

قصّ على هذه الأقصوصة
وهو منها على يقين جازم . وما
كان أسرتي وأسرّك لو استطعت
أن أنقلها إليك بلغته الجميلة التي
تأخذ من لحن بغداد ومن لحن
البادية . على أنني سأحاول
ما أمكنتني القدرة أن أترجمها

ترجمة صادقة تكشف عن أثرها في نفسه وفعلها في نفسي

كان في بغداد منذ خمسين عاماً أسرة كريمة
تعتز بنسب العرب من جهة الأب ، وتتصل بسبب
الترك من جهة الأم ، فهي مزاج ممتدل من عقليتين
متباينتين لا يجمع بينهما غير الدين . والدين في مثل
هذه الحال يكون أوثق عقداً وأمتن أسباباً لقيامه
مقام الجنسية الجامعة والمصيبة القريية . قالوا الدان
صالحان تقيان لا يفهمان من العروبة إلا النبوة
والقرآن ، ولا من التركية إلا الخلافة والسلطان ،
ولا يعرفان عن دار السلام وفروق إلا أنهما بلدان
في وطن واحد . والولدان جميلان بارّان يكبرُ الذكر
منهما الآنثى بخمس سنين ، وقد درجا معاً من مهد
الفضيلة ، ثم ترعرعا في حنان الأبوين على كفاف
من العيش يؤتيه متجرٌ غير نافق

لم يشغل عبد الواحد باله كثيراً بتفصيل حياة
هذه الأسرة الصغيرة . فكان كلامه عنها مرسلًا
مجملاً لا يحلل طبيعة شخص ، ولا يحدد تاريخ
حادث ، ولا يعين مكان منزل ؛ حتى أسماء الأب
والابن والبنات لم يجد في ذكرها ما يفيد الحديث !
فهو يحذف ما يزعمه فضولا ويسير قدماً إلى
هيكل الموضوع وعقدة الحادث ، فيقول إن الغلام

شرب عبد الواحد ^(١) وسقانا ثلاثة أقداح
من الشاي العطر . ثم أطلق من حنجرتة القوية
جشاة طويلة عريضة تكوار العجل ، ثم حضاً النار
بأنامله وشيع ضرماً في بقية الفحم ؛ ثم أشعل منها
(سيكارته) العربية وأرسل في رفق دخانها الرقيق
الأدكن . وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام .
وكان كلبى الصغير قد لاذ من قرس البرد بجانب
الموقد ، فهو ينطوى وينتشر تبعاً لما يغلب على جو
الغرفة من نفع النسيم أو لفعح اللب . فرأيته بطيل
النظر إليه في طرف ساكن ووجه ساهم . فقلت له
مداعباً : لعلك ذكرت بالكلب حبيبتك وهي في
خبائها بين كلابها وشائها . فابتسم ابتسامة المذراء
الخفيرة وقال : الحمد لله ما ذكرت على فقرى حياة
البر ^(٢) مذ هجرته ، ولكنني ذكرت رجلاً كان
في بغداد يدعى (أبا الكلاب) . فسألته وما حديث
أبي الكلاب هذا يا عبد الواحد ؟ فلمع في عينيه
البشر ، لأن سروره كان في أن يتحدث وتسمع .
وذهب به شيء من التيه ، لأن شعوره بأنه يعلم ما لا
نعلم يرفعه قليلاً فوق قدره ؛ لذلك تراه عند الحديث
يجلس جلسة النظير ويلهج لهجة الأمير ويقرر
تقرير العالم

(١) عبد الواحد رجل بدوي كان يقوم على خدمتي وأنا

ببغداد (٢) يريد الصحراء

براه إليها الشوق ، والمستقبل الباسم الذى ينتظره
 فى بغداد ، قد شعب فؤاده وشفى كبده ومسح ما به
 عرف المحلة والدار بعد لأي لطموس المعالم
 القديمة ؛ ثم قرع الباب بيد مرتجفه ، فإذا المالك
 الجديد يخرج إليه : فأقبل عليه المسكين لهفان
 ضارعا يسأله : هنا كان مهبط نفسى فأين أبى ؟ وهنا
 كان مسقط رأسي فأين أمى ؟ وهنا كان لى مهد
 وأخت وملعب وجيرة ؛ فقل لى بربك يا سيدي
 أين تحمّل بكل هؤلاء القدر ؟ . وكان بين المسؤل
 والسائل حوار قصير عرف منه البائس أن ربح النون
 قد عصفت بأهله . فارتد إلى الفندق لا يملك دمه
 ولا قلبه . ثم قضى حيناً من الدهر ذاهب القلب
 يكابد غصص الكرب ، ويعالج مضض الهموم ، حتى
 رأم الزمان والإيمان جروح صدره

وقع فى نفس الوحيد الحزين أن يتزوج ليعيد
 إلى سجل الوجود اسم أسرته ، فاقترحت عليه جارة
 له عجوز أن تخطب إليه فتاة يقولون إن بينها وبين
 بنى فلان عاطفة رحم ؛ وبؤ كدون أنها تنزع إلى
 عرق كريم لطبعها المذهب وجمالها المحتشم . فاطمان
 قلب الخطيب إلى رأى الخاطبة ؛ واختلفت العجوز
 بينه وبين ولى الفتاة حتى تم الوفاق وسمى الصداق
 وعينت ليلة الزفاف

زفت العروس إلى زوجها ، فبهره ما رأى من
 جمال ، وأحس من ظرف ، وسمع من أدب ؛ فافتر
 فى وجهه السرور وحمد الله على حسن توفيقه . ثم
 انقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجته .
 وفى ذات ليلة تجاذب العروسان أطراف السرير
 وشققا بينهما الحديث ، حتى أفضى إلى علاقتها بوليها
 فلان (بك) ، فأحب الزوج أن يعرف درجة القرابة

كان عمره اثني عشر ربيعاً حينما صحب خاله إلى
 الأستانة . والأستانة يومئذ كانت منتجع الخواطر
 ومهوى القلوب الطامحة إلى السطوة أو الثروة أو
 العلم . فهل كانت هجرته إلى دار الخلافة تثقيفاً لنفسه ،
 أو تخفيفاً عن أبيه ، أو مساعدة لخاله على تدبير
 متجره وماله ؟ كل ذلك يحمله راوى الحديث ، فما يعلم
 إلا أنه شدا شيئاً من العلم فى إحدى مدارس
 القسطنطينية تحت عين وليه وعونه ؛ ثم اندفع فى
 غمار المدينة الصاخبة يداور الأمور ويتلمس
 المكاسب ؛ ثم أوغل فى مدن البلقان وشعاب
 الأناضول ، حيناً فى خدمة الجيش ، وحيناً فى طلب
 العيش ، حتى انقطع علم ما بينه وبين أهله .

كان الغريب النازح يهاجم الأخطار فى كل فج ،
 وبصارع الأقدار فى كل لج ، وكل هم أن يجمع
 من المال ما يضمن له ولأسرته خفض العيش فى
 ظلال بغداد الجميلة . فلما ملأ الدهر يديه بما أمل كان
 وأأسفاه ربيعاً قد أدبر وربعه قد أقفر وحلمه
 قد تبدد ؛ فإن والديه البائسين قد ألح عليهما من
 بعده الحزن والضر والفقر حتى انظفا سراجهما فى
 حولين متعاقبين بعد انقطاع خبره بضع سنين ، وأما
 البنية اليتيمة فقد حنا عليها بعض ذوى المروءات
 من أهل البيوتات فضعها إلى حرمة ، وواسى يتعها
 الحزين بمطفه وكرمه

عاد المهاجر إلى وطنه يحمل فى جيبه المال وفى
 قلبه الأمل ، فإوطئت قدماء ترى المراق الذهبى
 حتى ازدحت الذكريات على خاطره ، ومرت الحوادث
 المزعجات أمام ناظره ؛ ولكن شعوره بأذى العودة
 إلى الأرض التى أبصر عليها الدنيا ، والسماء التى
 تقبل منها الروح ، والهواء الذى رف عليه بالصبا ،
 والماء الذى نضج قلبه بالنعيم ، والأسرة الحنون التى

أثيل الملك ، واستتر بأخلاق الثياب ، وقضى بقية عمره في جمع الخبز للكلاب الشوارد !
أذعن الخاطيء البريء لحكم الفقيه الأحق ونزل للزوجة الأخت عما يملك ، وارتدى طمراً من غليظ الكرباس ، وجعل على عاتقه مخلاة ، ومضى يقرع كل بيت ، ويقصد كل مطعم ، فيجمع الفئات والخبز ثم يقف بالبدان فيقسمه بالسوية على من أجاب الدعوة من كلاب الحى

لم يمض غير قليل حتى عرفه الناس وألفه الكلاب ، فصار يمشي في الأزقة وخلفه منها قطيع ، وينام في العراء وحوله من شدادها حرس مطيع ، وتحين الوجبة العامة فلا تجد كلباً طليقاً في بغداد إلا أجاب نداه ، وتناول من يديه المحموتين غداءه . ولكن الوالى رأى على طول الزمن أن يذى أبى الكلاب على رعيته عافية وربيع ، فسمن هزباها ، وكثر قليها ، حتى اختنق بلهاثها النهار ، وصم بنباحها الليل ، وأصاب الناس من عضاضها وأمراضها شر كبير . فأقام في ظاهر المدينة حظيرة واسعة ، ثم أمر الشرطة فصادوا الصواري وألقوها فيها . فكان أبو الكلاب على عادته يجمع الطعام والمظام ثم يذهب إلى ضيوف الحظيرة فيطعمها ويسقيها ، ثم يتهالك على الأرض من اللغوب فبرقد مكانه حتى الصباح

وفي ضحوة يوم من الأيام أو لم الوالى لأسراه وليلة السفاح فها نجا من بعدد لاهث ولا ناهج . وجاء أبو الكلاب فرأى ألافه الخلاء على أديم الأرض صرعى ، لا يتملقن بعين ، ولا يصعبن بذنب ! فعظم على المسكين أن يرى مثال الصداقة يموت ، وشبح الجريمة يحيا ، فتساقط بجانب السور مهود القوى ، صريع اليأس ، ولبت مكانه لا يأكل طعاماً ولا يذوق مناماً حتى لحق بربه . الزيات

بينهما ، ففضت الفتاة من طرفها ، وشاعت حمرة الخجل في وجهها ، وقالت في صوت خافت متهافت من الخزي والخوف : « الحقيقة أن ليس بيني وبين هذا الرجل قرابة ! وإنما هو نبيل محسن آوانى وربانى بعدما نجنى البين في أخى ، والموت في أبى ، وأنا يومئذ في حدود الثانية عشرة . ثم تنابت الأسئلة من الزوج ، وتسارعت الأجوبة من الزوجة ؛ وكان كلما انجاب عن خبايا الغيب حجاب امتقع لونه ، واقشعر بدنه ، واشتد وجيب قلبه ؛ وكانت هي كلما رأت منه ذلك نسبته إلى الخداعه في أصلها فمضت تفصل المأساة وتصور الفاجعة بالكلام والدمع ، عسى أن تعطف قلبه على مصابها ، فلا يفكر في طلاقها وعذابها . ولكنها لم تكد تلمس الحجاب الأخير حتى رأت زوجها قد قف شعره وانتفخ سحره وارتعدت أطرافه ، ثم انفجر صارخاً يقول : واويلتاه ! وامصيتاه ! لقد تزوجت أختي ! ... ثم خر مغشياً عليه . فلما تاب إليه بعض رشده نظر إلى أخته فوجدها فاقدة الوعي ، فتركها وابتدر الباب وخرج مسرعاً لا يلوى على شئ ، ولا يلتفت إلى أحد !

خرج طريد القدر من بيته خروج (أوديب الملك^(١)) من قصره ، ثم هام في الطرق الضيقة المتشاككة يسأل الرايح والغادي عن مفتى بغداد . فلما أدخل عليه باح له بسر الخطيئة ، فهول عليه التركي بمقابها ، وبالغ في جرائرها وأعقابها . ثم أفتاه بعد الاستشارة والاستخارة والرؤيا أن الله لا يغفر هذا الجرم إلا إذا صدف عن متاع الحياة ، وخرج عن

(١) في الأساطير اليونانية أن أوديب الملك قضى عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه ، فلما نفذ القضاء على غير علمه فقا عينيه وخرج من طيبة هائماً تفوده ابنته انتيفون